

الغرب في فكر المفكر مالك بن نبي

أ.عنتر قجور

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملخص:

الحضارة الغربية كبقية الحضارات التي مرت في التاريخ الإنساني لها خصائص ومميزات، تتفرد بها. وقد عجز غالبية الباحثين عن فهمها، نظرا لجهلهم بالفكر الأوربي وصياغاته الأولى. ويعتبر مالك بن نبي من المتفردين في فهم الحضارة الغربية، لنظرا لعدة عوامل نفسية واجتماعية اجتمعت فيه، فجاءت كتاباته مميزة في هذا المجال. فحلل الحضارة الغربية تحليل علميا دقيقا وموضوعيا، فذكر إيجابياتها وسلبياتها، ووصل إلى نتيجة منطقية، أنها تعيش في مراحلها الأخيرة، لتفسح المجال لغيرها من الحضارات.

Summarize the article:

Western civilization as the rest of the civilizations in human history have properties and characteristics, its unique and most researchers failed to understand, because of their ignorance of European thought and wording. Malik bin Nabi is a unique understanding of Western civilization, due to the psychological and social factors are met, the writings in this area. It analyzed scientifically rigorous analysis of Western civilization and an objective, pros and cons, and arrived at the logical conclusion, they live in the final stages, to give way to other civilizations.

المقدمة:

الإسلام ينفرد عن غيره من الديانات والفلسفات المنغلقة على نفسها، بأنه لا يقيم حواجز بين أتباعه والمعارضين له. بل يمد جسور التواصل والتعاون بينهما . فالآخر ليس الشر كله، بل هو مجال للتعارف والتبادل، على أساس أن الكمال المطلق لم تختص به أمة دون أمة، بل جعله الله موزعا على كل الأمم والشعوب. ولهذا خلقنا على هذه الصورة حتى يحدث بيننا تعارف وتكامل.

وقد جنت الحضارة الإسلامية ثمارا عظيمة من هذه العقلية المفتوحة للإسلام، فاستفادت من الآخرين -بدون النظر إلى ما يدنون به من الباطل- في مجالات حضارية متعددة، كان لهم السبق في الوصول إليها. فنحن نستطيع تشبيه الحضارة الإسلامية بالبيت الذي تكون أبوابه ونوافذه مفتوحة على الدوام وللجميع.

هذا الشغف بدراسة الآخر، دفعتهم في بعض الأحيان إلى السفر إلى موطنه والإطلاع عن قرب على ثقافته، كما فعل ابن بطوطة وابن جبير وأسامة بني منقذ . فسطروا لنا معلومات قيمة بحق، وأسرار كانت لولا هم تبقى مجهولة لنا عن هذه الأمم .

وقد بقي هذا الشغف متأصلا في نفسية المسلمين، فقد وفدت بعثات علمية في القرون الماضية إلى الغرب، مهمتها دراسة هذه الحضارة والاستفادة منها، كبعثة محمد علي باشا المشهورة في التاريخ . ثم لما حل الاستعمار بديار المسلمين زادت الدراسات، إلا أن نتائجها كانت مؤسفة على العموم.

ثم ظهرت فئة من خيرة الباحثين -كان مالك بن نبي على رأسها- الذين لم يقفوا من الحضارة الغربية موقف الضعيف، بل دعوا إلى فك عقدة النقص التي أصابت المسلمين، والقضاء على مركب العظمة لدى الغربيين، بتحويلها من ذات دراسة إلى موضوع دراسة. ولا شك أن هذا التفكير المنطقي في ذات السياق التاريخي، استهجنه البعض، وجعله موضع سخرية. وقد جعل مالك بن نبي هذه الفئة من أسباب تخلفنا وتقهقرنا.

فكان بحق هذا المفكر العظيم هو من حاز السبق في فهم نفسية الغرب وثقافته عامة، وقوانين الحضارة ومعادلاتها خاصة، فكان طبيياً للمسلمين، وفيلسوفاً للحضارة. يقول الأستاذ أنور الجندي: "ومثل مالك بن نبي بين مفكري العالم الإسلامي قليل فهو الرجل الذي ورد مورد الغرب، وجاءنا منه نقياً صافياً، وقد حفظ الله له أصالته وأفاد مما وجد، نصاعة فكر، وبعد نظر، وعمق فهم، وقدرة على كشف تلك التحديات والشبهات والأوضاع التي عمد التغريب والغزو الثقافي على نصب شباكها، لتدمير الفكر الإسلامي وإثارة أجواء الاضطراب والتخلخل بين جوانبه".⁽¹⁾

1-عوامل تكوين شخصية مالك بن نبي :

ولما نتساءل عن سر هذا التفوق المبهر، نجد وراءه عوامل كثيرة، اجتمعت في النهاية، لتكون لنا شخصية علمية صارمة، بمنطق رياضي محكم. وهي عوامل نجملها فيما يلي:

أ-البيئة الأسرية والاجتماعية المتدينة: نشأ مالك بن نبي في أسرة متدينة إلى حد كبير، وخاصة أمه التي كانت امرأة شديدة التدين.⁽²⁾ وقد كانت أكبر إنسان أثر على شخصيته. ضف إلى ذلك أنه نشأ في مدارس تحفيظ القرآن لأربع سنوات. وعاش في قسنطينة في جو علمي وديني، زادت من تشبهه بأصالته الدينية، وعقيدته الإسلامية.

ب-مطالعاته الدينية: كان مالك بن نبي يقرأ كل شيء، بما فيها الكتب الدينية وتاريخ العالم الإسلامي وواقعه المعاصر. ويخصص له وقت كبير في بيته في فرنسا خاصة لمناقشة قضايا ومشاكله. وهي مسائل كانت تطرح بقوة في عصره، عند مختلف التيارات الفكرية التي كانت الساحة الجزائرية تعج بها.⁽³⁾ وقد تأثر لواقع أمته المؤلم، فأدرك أن الاستعمار له قسط كبير في إفساد الشعب الجزائري، وفي تأخره الحضاري المروع. فكانت هذه الحقائق التي اكتشفها عن المستعمر، ترسخ له الفكرة السوداء التي حملها في تفكيره منذ أن كان صغيراً

(1) أعلام القرن الرابع الهجري. دط. مصر: المكتبة الأنجلو المصرية. دت. ص 139

(2) أنظر: مالك بن نبي. مذكرات شاهد للقرن. ط2. سوريا: دار الفكر. 1404هـ - 1984م. ص 19.

(3) أنظر: مالك بن نبي. المرجع نفسه. ص 240.

السن، من خلال قصص جدته لأمه زليخة عما فعله الاستعمار بالشعب الجزائري.⁽¹⁾

ج- شخصيته القوية: شخصية مالك بن نبي ليست من تلك الشخصيات التي يسهل ركوبها أو التأثير عليها بسهولة، بل هي شخصية لها استقلالها الذاتي، وتفكيرها الخاص. وهذا نراه جليا في كل كتاباته التي تتسم بالهجوم لا الدفاع، وبالنقد لا المدح. وقوة هذه الشخصية، يرجع قسط كبير في تكوينها إلى أمه، تلك المرأة التي تظهر من خلال ما كتبه عنها مالك بن نبي في مذكراته، أنها كانت ذا شخصية مقاومة. كما لا ننسى الحياة الصعبة التي عاشها مالك بن نبي، والتي ساهمت في صقل شخصيته، وجعلتها أكثر قوة وعنادا.

د- معرفته الجيدة بالاستعمار: عاش مالك بن نبي عمره في وسط إسلامي مسيحي يهودي، ودرس في مدرسة فرنسية، وكانت له علاقات مختلفة مع الفرنسيين حكاما ومحكومين، مما مكنه من فهم نفسيتهم كأفراد وجماعات. ثم زادت معرفته بهم لما هاجر إلى فرنسا ودرس هناك وتزوج بامرأة فرنسية أسلمت بعد ذلك. فكان إذا تكلم على المستعمر، فهو كلام العليم الخبير بما يقول. ولهذا تفرد مالك بن نبي في هذا المجال، حتى عد مرجعا في ذلك، لا يجاريه أحد من أبناء عصره.

ه- دراسته لعلم الكهرباء: هذا العلم من العلوم الدقيقة التي تخضع للمعادلات الرياضية الصارمة، مما تجعل دارسها منطقيا في تفكيره، جادا في سلوكه، لا مكان للعاطفة خارج حدودها في حياته. وقد أفاده مالك بن نبي هذا العلم كثيرا، وسهل عليه تحليل الحضارة الغربية تحليلا علميا متزنا.

2- الحضارة الغربية ظاهرة يجب معرفتها:

كان مالك بن نبي من الداعين إلى دراسة الحضارة الأوربية، كظاهرة بارزة وفعالة في حياة البشرية منذ قرون ليست بالقليلة، وهذه المعرفة تكون كالتالي:

أنظر: مالك بن نبي. المرجع نفسه. ص 15.

أ- معرفة تاريخها : يرى مالك بن نبي أنه لكي ننهض من جديد -وهذا سيقع لا محالة- لا يكفي فيه أن نعرف أنفسنا فقط، بل علينا أن نعرف العالم، الذي نحن جزء منه.⁽¹⁾

وأعاب على المسلمين جهلهم بتاريخ الأمم الأخرى بشقيها القديم والمعاصر. وعدم إطلاعهم على تجارب الأمم المعاصرة لهم، والتي حققت قفزات حضارية عظيمة تثير الإعجاب والتقدير، كالتجربة اليابانية والألمانية والفيتنامية والصينية . وعلى رأسها طبعاً التجربة الغربية، وهي تجربة فريدة وغنية يجب أن نخضعها للدراسة، ونستفيد منها إلى أقصى الحدود الممكنة. فتجربته مفيدة للعالم الإسلامي في حالته الوقفية هذه.⁽²⁾ لأن التعمق في هذه الظاهرة الحضارية المتكررة في التاريخ الإنساني، تساعدنا في فهم العوامل التي تبنى الحضارات أو تهدمها . وبالتالي نستطيع حل مشاكلنا بصورة صحيحة.⁽³⁾

فالتاريخ من العلوم الاجتماعية، التي تعد اليوم أكثر ضرورة من العلوم المادية،⁽⁴⁾ لأن العلوم الاجتماعية تكون الإنسان الذي هو أساس الحضارة، أما الثانية فهي علوم تصنع مادة، وهذا يعد أسهل من الأولى ونتيجة طبيعية لها. وهذا الجهل الغير مبرر بتاريخ الغرب، أوقعنا في سطحية قاتلة، فأصبحنا نفهم الأشياء على ظاهرها بدون الولوج إلى جوهرها. فنحن إما فقدنا حاسة النقد أو عطلناها عن العمل و الأدهى أن هذه السطحية موجودة أكثر في فئة الطلبة، الذين درسوا في البلاد الغربية . فجهلهم بتاريخ أوروبا، جعلهم يعجزون عن إدراك الحضارة

(1) أنظر: وجهة العالم الإسلامي . ترجمة : عبد الصبور شاهين . ط1. لبنان: دار الفكر

المعاصر. سوريا: دار الفكر. 1423هـ-2002م. 165/1.

(2) أنظر: مالك بن نبي . المصدر السابق. ص122

(3) شروط النهضة أنظر: مالك بن نبي . شروط النهضة. ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد

الصبور شاهين. ط1. الجزائر: دار الوعي. 1434هـ-2013م.

(4) وجهة 1

الغربية، وكيف أنها في طريق التحلل والزوال.⁽¹⁾ ولهذا أصبحت زيادة عددهم، تعني نماء السطحية في المجتمع الإسلامي.⁽²⁾ وإن كنا نلتمس لهم العذر، لأنها "نتيجة للقيود النفسية التي صنعت بيئة ما بعد الموحدين، تلك التي تجعل الأمر أحد الاحتمالين، فهو إما طاهر مقدس، وإما دنس حقير، دون أن تعرف بينهما وسطاً".⁽³⁾

ب- معرفة ثقافتها: كل حضارة تمتلك ثقافة مميزة بها، والحضارة الغربية طبعا من هذه الحضارات، التي ساهمت ثقافتها في تشكيلها وتحريكها. فالثقافة هي الإطار العام الذي تكون الحضارة وتتحكم فيها. ولهذا يرى مالك بن نبي أن جهلنا المتواصل بالغرب راجع إلى أننا ما زلنا لم نعرف جيداً الثقافة الغربية من حيث مصادر تكوينها وخصائصها. وقد وجه لوما مباشراً للطلبة الذين يذهبون للدراسة في الغرب، في أنهم يتعلمون العلم واللغة لا الثقافة، فهم تهمهم منفعتهم العاجلة وفقط.⁽⁴⁾ ولهذا لم تقدم هذه الفئة شيئاً للأمة، بل وقعت في السطحية المهلكة، ولا خير في زيادة عددها.

3- خصائص الحضارة الغربية:

قراءة مالك بن نبي المتأنية والطويلة للحضارة الغربية، جعلته يصل إلى بواطن هذه الحضارة، فيحللها تحليلًا قويا جدا، ويقف على عبقريتها الخيرة، وعبقريتها الشريرة.⁽⁵⁾ وهذا ما عجز عنه بقية الباحثين. فكان مالك بن نبي هو أول من فك لغز الحضارة الغربية، بعد محمد إقبال رحمه الله. وبيان خصائص الحضارة الغربية تكمن كالتالي:

أ- الحضارة الغربية علمانية في ظاهرها دينية في جوهرها: يقول مالك بن نبي عن الأفكار والحضارة: "إن دور الأفكار في حضارة ما لا يقتصر على

(1) أنظر: مالك بن نبي. وجهة العالم الإسلامي. 65/1.

(2) أنظر: مالك بن نبي. المرجع نفسه. 66/1.

(3) نفس المصدر.

(4) أنظر: مالك بن نبي. المصدر السابق. 67/1.

(5) أنظر: مالك بن نبي. فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ. ترجمة: عبد الصبور

شاهين. ط3. لبنان: دار الفكر المعاصر. سوريا: دار الفكر. 1422هـ-2001م. ص267

مجرد الزينة والزخرفة، كزخارف المدفأة في المنزل مثلاً، فهو لا يصبح كذلك إلا حينما يصبح المجتمع في عصور ما بعد التحضر .⁽¹⁾ والدين من ضمن الأفكار، التي تبقى تتحكم في الإنسان شعورياً أو لا شعورياً حتى لدى الملحد، يقول أحد الشيوعيين في رسالة بعثها إلى صديقه تروتسكي، قبل أن يقدم على الانتحار: "الحياة الإنسانية لا معنى لها على طول الزمن، إلا أن تكون في خدمة الخلود".⁽²⁾

فالإنسان يبقى على طول كما يقول علم الاجتماع حيواناً دينياً.⁽³⁾ والمسيحية لعبت دوراً بارزاً في تشكيل الثقافة الأوروبية وصياغتها، يقول المؤرخ جيزو: "تلك السمة العظيمة الأصلية للحضارة الأوروبية، منذ أن تطورت تحت تأثير الإنجيل، تأثيره الظاهر والخفي، المنكر أو المرضي، حيث عاش القهر والحرية وكبرا معا".⁽⁴⁾

وما زال هذا التأثير الديني واضحاً في ثقافتها إلى يومنا هذا. رغم تبنيها للعلمانية، يقول مالك بن نبي: "فكل حدث يسجله الزمن في ملحمة من ملاحم التاريخ الأوروبي، هو في الواقع نوع من التجسيد للفكرة المسيحية".⁽⁵⁾ فالظاهرة المسيحية والظاهرة الأوروبية في رأي مفكرنا شيئاً واحداً، أو بعبارة أخرى الظاهرة الثانية تولدت من الظاهرة الأولى، وبقيت متعلقة بها، ومهما حاولت الخروج من إطارها فإنها لن تستطيع الخروج عنها. بدليل أن قوانين أوروبا الحديثة لا هوتية في أساسها، وإن حاولوا إصباغها بالصبغة المدنية، أو تضليلنا بأنها مدنية علمانية بحة، فالحقيقة أنها دينية في جوهرها.⁽⁶⁾

(1) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو. ط9. سوريا: دار الفكر. 1430هـ-2009م. ص42

(2) مالك بن نبي. ميلاد مجتمع ترجمة: عبد الصبور شاهين. ط6. سوريا: دار الفكر. 1427هـ-2006م. ص68.

(3) مالك بن نبي. المرجع نفسه. ص69.

(4) مالك بن نبي. المصدر السابق. ص60.

(5) مالك بن نبي. المصدر السابق. ص62. وأنظر أيضاً: شروط النهضة ص95

(6) أنظر: مالك بن نبي. الظاهرة القرآنية. الصبور شاهين. ط7. سوريا: دار الفكر. 1427هـ-2006م. ص63

فوقونا على هذه الأصول والروابط التي تربطها مع الحضارة الأوربية، يفيدنا في تحليل هذه الحضارة تحليلًا صحيحًا، حتى وإن تزينت بأنواع الزينة، للتضليل والتمويه. كما يفيدنا أيضًا، في فهم القرآن الكريم. فلا يتصور بحال أن ندرس الإسلام أو القرآن بعيدًا عن تاريخ الأديان. وقد عبر مالك بن نبي عن ذلك في دراسته للظاهرة القرآنية، وأثناء تحليله لموضوع الإعجاز القرآني، ووجد من الضرورة: "إعادة النظر في القضية في نطاق الظروف الجديدة، التي يمر بها المسلم اليوم مع الضرورات التي يواجهها في مجال العقيدة والروح".⁽¹⁾

ثم إن تطلع مالك بن نبي إلى تأسيس رؤية جديدة عن علاقة المسلمين بالغرب وإلى بناء فكر حضاري جديد، يجعله يتحدث بلغة المحفز عن البحث الموسوعي والتوثيقي لتوسيع مدارك الباحث المسلم، وذلك بإضافة شرط آخر إلى شروط المفسر، وهو معرفة تاريخ الأديان.⁽²⁾

ب/ اليهود هم روح الحضارة الغربية: كان مالك بن نبي من ضمن الكتاب الذين كتبوا عن العلاقة الغامضة التي تربط اليهود بالحضارة الأوربية منذ أن هاجروا إليها. و توصل إلى أن اليهود هم آباء هذه الحضارة وروحها. وأنهم لا يعتبرون كما يتصور البعض جزءًا هامشيًا في مسيرة التاريخ الأوربي. فجاء كتاب مالك بن نبي القيم وجهة العالم الإسلامي الجزء الثاني. ليكشف لهم الحقيقة كاملة، ويزيل لهم الستار الذي ظل قائمًا قرونًا طويلة.

وقد وفق في فك سر العلاقة الوطيدة بين اليهود وأوروبا، وأجاد في ذلك إلى أبعد الحدود. بل كان هو أول من طرح أسئلة لم تطرح من قبل مثل: لماذا اتجه اليهود أثناء الشتات إلى الغرب المتخلف دون الشرق المتحضر؟. فأرجع ذلك، إلى طبيعة الأوربي المتفتحة وتقبله للآخر. مما شجع اليهود على اختيار

(1) المرجع نفسه. ص 112.

(2) مالك بن نبي. المرجع نفسه. ص 144

هذا المكان، عكس طبيعة الشرقي الذي تتحكم فيه النزعة الدينية الراضية للآخر.⁽¹⁾

هذا الذكاء اليهودي والذي - رآه البعض في البداية غير ذلك - سهل عليه مهمة السيطرة على الأوربي في جميع عصوره، بداية من الحضارة الرومانية إلى وقتنا الحاضر. و أصبحت له كلمته المسموعة في أوربا، وتحديد مصيرها وفق ما يريد هو. حتى أصبح هو روح الحضارة الغربية، وعقلها المفكر.⁽²⁾ وبعبارة أصح تاريخها الأصيل.⁽³⁾ ففي أوربا نرى الأسماء الأكثر بروزا هي الأسماء اليهودية "في ميادين البنوك والتجارة والصناعة والمسرح والصحافة والأدب، فسائر النجوم الوطنية البارزة للبلاد هم بما لا يقبل الجدل، إما يهود أو متحدرون من أصل يهودي".⁽⁴⁾

هذا الموقع، أو ما سماه مالك بن نبي "فاعلية النفوذ"⁽⁵⁾ سهل عليهم توجيه المسار الأوربي كما خططوا له، طبعاً بأيدي أوربية. فكانوا هم من أعلنوا الثورة على التقاليد⁽⁶⁾ وهم وراء دفع أوربا إلى الغزو والاستعمار⁽⁷⁾، وهم وراء إدخال الديمقراطية إلى أوربا من خلال ثورة كرومويل⁽⁸⁾، وهم وراء المطالبة بحقوق الإنسان، لتحقيق خططهم في العالم.⁽⁹⁾ باختصار أصبح الأوربي لا يستطيع التفكير أو العيش إلا طبق الجدلية اليهودية. وأصبح هو مطية اليهود لتحقيق أهدافهم. يقول مالك بن نبي:

(1) أنظر: مالك بن نبي. وجهة العالم الإسلامي. ترجمة: عمر مسقاوي. ط1. الجزائر: دار

الوعي. 1434هـ-2013م. 49/2

(2) مالك بن نبي. المرجع نفسه. 44/2.

(3) مالك بن نبي. المرجع نفسه. 82/2.

(4) مالك بن نبي. المرجع نفسه. 44/2.

(5) مالك بن نبي. المرجع نفسه. 66/2.

(6) أنظر: مالك بن نبي. المرجع نفسه. 68/2.

(7) أنظر: مالك بن نبي. المصدر السابق. 65/2.

(8) أنظر: مالك بن نبي. المرجع نفسه. 69/2.

(9) أنظر: مالك بن نبي. المرجع نفسه. 70/2.

"فالأوربي كان نوعا ما الآلة الجاهزة لمهمة إسرائيل" ⁽¹⁾ ويقول عن المجتمع الأوربي بأنه يعمل الآن : " بكامل طاقته لمصلحة اليهودي " ⁽²⁾ وكان هتلر هو أول أوربي، حاول فهم سر أوربا الغامض مع اليهود ⁽³⁾ ولكنه لم يحسنه أبدا تقدير الحضارة الحديثة، فوقع فيما وقع فيه من أخطاء محته من تحقيق حلمه في السيادة على العالم .

ج/الروح العنصرية: داء فتاك أصاب الحضارة الغربية كلها أكثر مما أصاب الحضارات السابقة. وقد استشرى هذا المرض مع مرور الوقت في جسمها وتضاعفت درجته، حتى أصبح مرضا مزمنًا متأصلا في الشخصية الأوربية، لا تستطيع العيش بدونه . فهو باختصار أصبح روحها. ⁽⁴⁾ إلى درجة أنها احتقرت كل الأجناس ⁽⁵⁾، اقرأ معي أيها القارئ الكريم، لقول عالم كبير، مثل رينان ليتبين الضلال الذي وقعت فيه هذه الحضارة، حيث يقول: "...جنس واحد يلد السادة والأبطال، هو الجنس الأوربي. فإذا نزلت به" الجنس النبيل إلى مستوى الحضائر التي يعمل فيها الزنوج والصينيون فإنه يثور. فكل ثائر في بلادنا هو بطل لم يتح له ما خلق له. وهو إنسان ينشد حياة البطولة، فإذا هو مكلف بأعمال لا تتفق وخصائص جنسه. إن الحياة التي يتمرد عليها عمالنا يسعد بها صيني أو فلاح أو كائن لم يخلق لحياة الحرب، فليقم كل امرئ بما خلق له، لتسير الحياة على ما يرام " ⁽⁶⁾ وهو أكيد يعلم أن هؤلاء الأجناس الذين احتقرهم كانوا أسبق حضارة ورقيا، من بني جنسه، الذين لم يدخلوا في إلا متأخرين ف الحضارة .

(1) المرجع نفسه. 51/2.

(2) المرجع نفسه. 75/2.

(3) أنظر: مالك بن نبي. المرجع نفسه. 94/2.

(4) أنظر: مالك بن نبي. المرجع نفسه. 84/2.

(5) أنظر: مالك بن نبي. وجهة العالم الإسلامي 134/1

(6) أمالك بن نبي. المرجع نفسه. 133/1.

وأوروبا بهذه العقلية انتهكت حقوق الإنسان، ولكن هذه الأسماء البراقة لا قيمة لها خارج الحدود الأوروبية أو قل خارج إطار الجنس الأوروبي. فأوروبا كلها نازية الفكر والسلوك، في كل زمان ومكان.

وعنصريتهم هذه، أدتهم إلى إلغاء صفحات كاملة من التاريخ الحضاري المشرق، فقالوا إن التاريخ يبدأ مع الإغريق ثم الرومان ثم ينتهي بسقوط هذه الأخيرة سنة 450م، ثم يتوقف إلى سنة 1453م بداية النهضة الأوروبية ليواصل مسيرته من جديد. وهذه الفترة الطويلة تعتبر فراغا تاريخيا في رأيهم.⁽¹⁾ لهذا نجدهم حين يأتون لتعريف الثقافة، يقولون بكل جرأة إنها تراث الإنسانيات الإغريقية واللاتينية.⁽²⁾

وقولهم هذا موجه بالأساس للحضارة الإسلامية، التي حاولوا -وهذا بشهادة المؤرخ خوستاف لوبون- طمس معالمها، ومحو آثارها من سجل التاريخ.⁽³⁾ وكان الإستشراق أداة رئيسية في هذه المهمة.

وأوروبا بهذا "المرض النفسي"، تريد أن تقنع أو توهم الآخرين، بأن الحضارة هي خاصية أوروبية، وأن العلاقة بينهما هي علاقة تلازمية، لا مكان فيه للأجناس الأخرى. وأن إسهاماتهم إن وجدت لم تكن إلا إسهامات هامشية لا معنى لها، إذا ما قورنت بإسهامات الجنس الأبيض.

والرسالة التي تريد أوروبا أن توصلها لنا في الأخير، هي أنها تريد أن تقول لنا إنني أريد أن يكون العالم خال منكم، أو بلا شهود منكم.⁽⁴⁾ وقد تحققت لهم هذه الأمنية في أمريكا، حينما أقدم الأوروبيون بهمجية غير معهودة إلا لدى اليهود والمغول، على محو شعوب الهندو الحمر محوا تاما وبدم بارد.⁽⁵⁾

(1) أنظر: مالك بن نبي. مجالس دمشق. ط. 2. سوريا: دار الفكر. 1427هـ-2006م. ص 73.

(2) مالك بن نبي. شروط النهضة. ص 88.

(3) أنظر: مالك بن نبي. المرجع نفسه. ص 152-153.

(4) أنظر: مالك بن نبي. في مهب المعركة. ط. 7. سوريا: دار الفكر. 1427هـ-2006م. ص 28.

(5) أنظر: مالك بن نبي. وجهة العالم الإسلامي. 87/2.

وما دامت أوروبا مصابة بهذا المرض، فإنها لن تستطيع فهم الإنسان بمعناه التام.⁽¹⁾

ويؤكد مفكرنا مالك بن نبي على أن اليهود هم من كانوا وراء تخلق الأوربي بهذه الصفة الأخلاقية الذميمة . فهذا الجنس في أصله جنسا مشهودا له بالطيبة والانفتاح .

فاليهود هم من حولوه إلى جنس شرير ومنغلق على نفسه، حيث أقنعوه بفكرة الاستعمار، ثم حاولوا عزل أوروبا عن بقية شعوب العالم بتصويرهم كخطر دائم عليهم . ومن هنا نشأت هذه الثقافة الأوربية ذات الخصائص الأكثر عنصرية.⁽²⁾

د/الروح الاستعمارية: نال الاستعمار من بحوث مالك بن نبي الحيز الأوفر من كتاباته، باعتباره شيطانا، وأفزع تخريب أصاب التاريخ⁽³⁾، وبأنه نكسة في تاريخ الإنسانية . وتلك الحركة التي يسميها التاريخ بالنهضة، ما هي إلا رجوع إلى العهد الروماني والإغريقي.⁽⁴⁾

وقوله هذا ليس من باب إطلاق الألفاظ فقط، وإنما هو يورد من الشواهد الواقعية التي انتهجها الاستعمار الشيء الكثير، والتي عاشها هو بنفسه، وخبرها عن قرب .

و الخلاصة أن الاستعمار لم يجلب للشعوب المستعمرة إلا الشر والوبال، فقد حول هذه الشعوب إلى مجرد أشياء من جملة أشياءه.⁽⁵⁾ لا كائنا حرا، له تفكيره الخاص به .

فالاستعمار حطم شبكة العلاقات في المجتمع، لأنه يعرف أنها أكبر مؤثر في تحديد طبيعة المجتمع، لذلك فهو يسعى لتغييرها، فهو يعلم " أن شبكة العلاقات الاجتماعية هي التي تؤمن بقاء المجتمع، وتحفظ له شخصيته، وإنها

(1) أنظر: مالك بن نبي . في مهب المعركة. ص 159.

(2) أنظر: مالك بن نبي . وجهة العالم الإسلامي. 84/2.

(3) أنظر: مالك بن نبي . المرجع نفسه. 112/1.

(4) مالك بن نبي. في مهب المعركة. ص 160.

(5) أنظر مالك بن نبي. القضايا الكبرى. ص 33.

هي التي تنظم طاقته الحيوية، لتتيح له أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ، وبدهي أننا لا نستطيع أن نفترض أن الاستعمار يجهل هذه العوامل في بلد مستعمر فهو يطبق في سياسته إزاء البلد المستعمر القاعدة " فرّق تسد " ⁽¹⁾.

ثم يسعى لتغيير القوارض لشبكة العلاقات الاجتماعية، وذلك من خلال استخدام عالم الأشخاص، بحيث يسير سلوكهم من خلال عالم الأفكار فيقول: " يستخدم الاستعمار نوعاً من القوارض المجازة، الذين ربّوا بعناية في بؤره الثقافية لمهاجمة شبكة العلاقات الثقافية والأخلاقية في بلد معين، وهم أنفسهم الذين يدعون أنهم يمثلون ثقافته " ⁽²⁾ ويضرب أمثلة من الواقع على ذلك فيقول: " قد يقوم رجل بمنح مثقف . ذي أخلاق . منحة إقامة شهر في أي مكان . في فندق معين . وعندما يريد أن يخرج هذا المثقف فيوقع على قائمة حسابه، فيلاحظ أن جانباً من النفقات قد حمل على بند " بار " فهذه الكلمة هي حبة الرمل الصغيرة المخصصة لتحطيم علاقة ما " ⁽³⁾.

وإذا أراد أن يعطل بعض المشروعات في إدارة معينة، هنالك يكفيه أن يخلق في أجهزتها فراغاً مؤقتاً، موظف صغير يتغيب في اليوم نفسه، وهنا يتوقف التنفيذ ⁽⁴⁾.

إنه يري أن كل العوامل غير الفعالة في المجتمع، أغلبها من الاستعمار مثل الروتين، والتغيب أو عدم تقبل النقد، كلها تعمل على تدمير شبكة العلاقات الاجتماعية، مما يؤدي في النهاية إلى سقوط المجتمع، تحت رحمة الاستعمار في أغلب تصرفاته وأفكاره.

ويرى مالك أن الاستعمار يركز على عالم الأفكار، وهو يقسم الأفكار إلى أفكار تجسدية

وهي الفكرة التي تجسدت في ذات شخص، ولها واقع عسكري أو واقع سياسي بطولي في البلاد المستعمرة، فهو يتحدث عن مفهوم الأفكار فيقول: "

(1) ميلاد مجتمع. ص 76-77.

(2) المصدر السابق. ص 78

(3) المرجع نفسه. ص 80.

(4) مالك بن نبي. المرجع نفسه. ص 81

إن السياسة التي تتمثل في أفكار مجسدة في البلاد التي لم تبلغ درجة معينة من التطور، أو التي سببت لها بعض الظروف وعواصف التاريخ نكسة في التطور، وحركة تقهقر شامل كما حدث لألمانيا في عهد هتلر، فإن الفكرة تحل في شخص لتنشئ صورة سياسية خاصة، وهذه بحكم شذوذها عن مقاييس العقل، تشبث بفرد تتجسد في ذاته، فتتطور وتنمو وتنظم طبقاً لمصالحه الخاصة بحيث تصبح هذه المصالح تلقائياً هي المبررات والدوافع والمقاييس لسياسة عاطفية " (1).

والأفكار التجريدية وهي الأفكار التي تحملها ذات الشخص، كفكرة الجهاد، أو التحرير، أو الخلافة أو غيرها، فيقول عنها: " إن السياسة التي تتطور تبعاً لأفكار مجردة تعانق بحكم الضرورة الضمير الشعبي، ومن ناحية أخرى تلتزم المبادئ والمقاييس والقواعد التي تتحكم في سيرها فإنها بذلك تحمل في طبيعتها مبدأ التعديل الذاتي، الذي يفرض عليها رقابة من نفسها معدلاً بذلك حركتها واتجاهها عند الحاجة، وكل حركة من حركاتها تتطلب كأى عملية حسابية تعقياً على نتيجتها، وتصحيحاً تابعاً لها، فإن السياسة المقعدة تراجع دائماً نتائجها، وهذه المراجعة تحميها من أي عامل أجنبي يحاول تغيير مجراها ومرسأها، لأنها تكون جهازاً معدلاً، يطلق إشارة الخطر، كلما حدث في الطريق أي حدث من شأنه أن يغير في الحركة أو في الاتجاه " (2).

ولذلك فالاستعمار يعمل على محاربة الفكرة المجردة، وذلك لقوتها، لأنها تبقى الناحية المثالية لدى الشعوب، ولا يستطيع الاستعمار تدميرها، ولذلك يحاول دائماً أن يجسد هذه الفكرة، في ذات معينة، ثم يستخدم أساليب الترغيب والترهيب، لتركيع من تجسدت فيه هذه الفكرة. إما بصناعة الأبطال حيث يجعل أحد الرجال يحمل فكرة معينة، بحيث يجعل منه بطلاً، ثم يستخدم وسائل القوة والإغراء ضده، فما يتبناه بعد ذلك يسير عليه الشعب المحتل.

(1) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة : مالك بن نبي، ط دار الفكر، دمشق ط عام 1960م، ص 24، ص 25.

(2) ما لك بن نبي. المرجع نفسه. ص 24.

أو استخدام لغة الدين بطريقته الخاصة، بحيث يحاول أخذ فتاوى من بعض علماء السلاطين لكي يمرر فكرة خاصة به، وفي مستوى آخر تراه يفصل لغة الدين لأنها تسد بصورة محكمة منافذ الوعي إزاء الفكرة⁽¹⁾.

أو استخدام الجهل: إننا نراه يستغل جهل الجماهير، لينشئ حول الفكرة، منطقة فراغ وصمت لعزلها عن المجتمع.

أو استخدام سلاح المال إذ يكون لنفسه بهذه الوسيلة صداقات، أو كما يعبرون عنه بلغة الحرب اتفاقيات في البلاد المستعمرة، تساعد على توجيه هجمات محكمة في الوقت المناسب على بعض القطاعات من الجهة الفكرية⁽²⁾.

هذه هي الأسس البارزة في عملية الغزو الفكري عند مالك، وهناك فرعيات أخرى ما هي إلا توضيحات لهذه الأسس في حلبة الصراع الفكري، التي يدير الاستعمار مشاهدتها من وراء الستار دون أن يرينا نفسه حتى لا ننتبه لأخطار المسرحية، فنعمل على إخراج الممثلين عن أدوارهم التي حددها لهم، فالاستعمار ليس غيباً لكي يرينا نفسه.

لهذا، فالاستعمار لا يجب الوثوق فيه أبداً، وإن حمل في يديه عرق من شجرة الزيتون كدليل على مسالمتة⁽³⁾. لهذا فهو شر كله سواء كان ذلك الاستعمار المتحفظ الذي لا يتدخل مباشرة في نواحي حياة المستعمر، بل يطلق لأبناء المستعمرة بعض مظاهر الحرية، أو الاستعمار الاستبدادي الذي يتدخل مباشرة في جميع تفاصيل الحياة⁽⁴⁾.

وهو وإن كان أهلك المستعمرين مادياً، فإنه أهلك أوروبا أخلاقياً، وذلك ما يشهد به تاريخ إسبانيا منذ اكتشاف أمريكا⁽⁵⁾. والعجيب أنها بالرغم من

(1) أنظر: مالك بن نبي. المرجع نفسه. ص 17.

(2) نفس المصدر.

(3) أنظر: مالك بن نبي. المسلم في عالم الاقتصاد. ط 3. سوريا: دار الفكر. 1420هـ.

2000م. ص 97.

(4) وجهة مالك بن نبي. وجهة العالم الإسلامي. 108/1.

(5) مالك بن نبي. المرجع نفسه. 123/1.

إدراكها لأخطار الاستعمار، فإنها تعمي عن هذه الأخطار، كأن هناك قدرا محتوما يقضي على يقضتها ووعيتها.

لكن ما انتبه له مالك بن نبي وهو مشكور على ذلك، وهو يعتبر سر من أسرار التاريخ، أن فكرة الاستعمار فكرة يهودية أدخلها اليهود في جملة من الأفكار التي أدخلوها إلى الفكر الأوربي، لينتقموا من الآسيويين وعلى رأسهم المسلمين.⁽¹⁾

ه/الروح المادية: المرء في وقت فراغه، يلتجأ إلى طريقتين، إما أن ينظر حول قدميه أي نحو الأرض، وإما أن يرفع بصره نحو السماء. فالطريقة الأولى تملأ وحدته بالأشياء، والثانية بالأفكار. وهكذا تنشأ بهذين الطريقتين الثقافة، ثقافة سيطرة ذات جذور تقنية، وثقافة حضارة ذات جذور أخلاقية وغيبية.⁽²⁾

وأوربا منذ بداية القرن العشرين أصبحت تتجه إلى المادية بشكل مفرط ومخيف. فأصبح الرقم 1 رقما له سلطان، في هذا المجتمع الذي أطلق عليه مالك بن نبي بالمجتمع الفني الآلي.⁽³⁾ هذا التقديس للكم له تكلفة غالية على الأجيال القادمة، فالطفل تملي اتجاهه في الحياة، فيصبح لا يختار طريقة فيها إلا وضع نصب عينيه ما يأخذ من المجتمع لا ما يعطي، إنه يبحث عن حظة لا رسالته.⁽⁴⁾ فتتضخم لديه الأنا، مما يؤدي إلى تحليل الجسد الاجتماعي لصالح الفرد.⁽⁵⁾

ووصولها إلى هذا المستوى قتل فيها كثيرا من المفاهيم الأخلاقية. و أصبحت تؤمن بالنسبية الأخلاقية، لا الفضيلة المطلقة. هذه الكلمة أضحت كلمة ميتة لا معنى لها في القرن العشرين.⁽⁶⁾ فالأوربي حين ينظر إلى مشكلات الشعوب الأخرى فإنه يضع نظارة على عينيه، وهذه النظارة لا تتصل بقيم

(1) أنظر: مالك بن نبي. المرجع نفسه. 65/2

(2) أنظر: مالك بن نبي. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ص 17.

(3) وجهة العالم الإسلامي. 129/1.

(4) مالك بن نبي. المرجع نفسه. 128/1.

(5) مالك بن نبي. ميلاد مجتمع. ص 43.

(6) أنظر: مالك بن نبي. وجهة العالم الإسلامي. 127/1.

الأخلاق أو بقيم السياسة . ولا أدل على ذلك من تلك المجازر التي ارتكبتها في مسيرتها التاريخية، لأجل المادة . هذا الإله الجديد الذي عبده أوربا بكل إخلاص ساقها من حيث تشعر أو لا تشعر إلى الحيوانية . يقول مالك بن نبي: " إن حديثنا عن إنسانية أوربا لا يكون إلا حديثا عن نزعة إنسانية جذبية دون إشعاع، وفي هذه الحالة نراها تعني إنسانية أوربية في الداخل، وإنسانية استعمارية في الخارج . وهذه الأخيرة قائمة على أقبح المعادلات السياسية وأشنعها".⁽¹⁾

ثم إن حدوث إخلال في القيم الأخلاقية في مجتمع معين، يحدث بعده تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه.⁽²⁾ فلكي أوربا تستطيع تغير هذا الإنسان السلبي الضار لها وللعالم، عليها أن تحاول تغيير وسطها الثقافي، بإنشاء محيط جديد . فالحضارة ليست كومة من الأشياء إنما هي مبادئ وقيم وقبل هذا كله أخلاق . يقول مالك بن نبي: " فليست الثقافة سوى تعلم الحضارة، أعني استخدام ملكاتنا الضميرية والعقلية في عالم الأشخاص . وليس العلم سوى بعض نتائج الحضارة، أي إنه مجرد جهد تبدله عقولنا حين نستخدم في عالم الأشياء".⁽³⁾

ولكن إصرار أوربا على جعل المعادلة الغير منطقية عقليا منطقية عقليا، هو انتحار حضاري، ستدفع ثمنه الباهظ في المستقبل القريب، إن لم تتدارك خطواتها الغير محمودة . فالإنسان هو في النهاية هو من يحدد مستقبله بيديه . ولكن أرى أن أوربا ستبقى في هذا الاتجاه، حتى تحكم عليها محكمة التاريخ . لأنه في رأي أن هذا الداء لم يصيبها في مرحلتها الثالثة والتي تدعى المرحلة الغريزية، ولكن هذا الداء نمت مع بدايات بناء الذات الأوربية .

و/تقديس القوة : لا حظ مالك بن نبي أن روح الحضارة الرومانية تنبع من الروح القيصرية، أما روح الإسلامية فإنها تنبع من الروح الإنسانية . وفرق شاسع بين الروحيين . بين من يرى أن المسائل والإشكالات تعالج بالأخلاق،

(1) المرجع نفسه. 20/1.

(2) مالك بن نبي . ميلاد مجتمع . ص 53.

(3) مالك بن نبي . المصدر السابق . ص 96.

وبين من يراها تعالج بالقوة . من يرى بأن الأخلاق هي الأصل، وأن القوة هي الاستثناء، وبين من يرى العكس . يقول مالك بن نبي : "بالإجمال فإن أوروبا ركبت في مضمون ثقافتها مزيجاً من الأشياء والأشكال من التقنية والجمالية، بينما الشرق الإسلامي ركب في ثقافته مزيجاً من فكرتين الحقيقة والخير".⁽¹⁾

وتجرد الحضارة الغربية من الأخلاق، أدت بها إلى الإفراط في استعمال القوة، وبالغت في تعظيمها، حتى أصبحت لا ترى في سواها حلاً لمشكلاتها.⁽²⁾ فكان القرن التاسع عشر قرن القوة بامتياز .

و تجدرت هذه الفلسفة في نفسية الأوربي حتى أصبحت مرضاً لديه . حتى أنه يتجاوز أحياناً الحدود، ليقع في الغرور، يقول كامو : " إن قوة القلب وقوة الفكر والشجاعة تكفي لإيقاف القدر عند حده ".⁽³⁾

ثم ألا يعلم الغرب، أن القوة وحدها تبقى عاجزة على الحفاظ على الحضارة حية، ما لم تسندها جملة من العوامل النفسية والسياسية، فقوة روسيا القيصرية وألمانيا النازية لم تنفعهما في إيقاف الموت الذي حل عليهما.⁽⁴⁾

فالقوة بلا أخلاق مفسدة ومهلكة للأمة . والحضارة الإسلامية قبلهما مرت بهذه المرحلة، يقول مالك بن نبي : "الحضارة الإسلامية توقفت إنتاجها الثقافي في القرن الثاني عشر، لكن انهيارها تأجل تاريخياً حينما حل العنصر العسكري محل اللون الثقافي لمواجهة تحديات الخارج في قانون تداول الحضارات وتواصل الثقافات".⁽⁵⁾

وقد أعطى غاندي حلاً - من باب الإشفاق - لمعضلة الحضارة الغربية ، فقال : "إذا كنتم تريدون تبليغ رسالة إلى الغرب، فيجب أن تكون رسالة الحب

(1) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ص 18

(2) أنظر: مالك بن نبي. فكرة الإفريقية الآسيوية. ص 258.

(3) مالك بن نبي. المرجع نفسه. ص 263.

(4) مالك بن نبي. من أجل التغيير. ط 6. سوريا: دار الفكر. 1429هـ - 2008م. ص 24.

(5) مجالس دمشق. ص 76.

والحقيقة... وسيحظى هذا الغزو برضا الغرب، نفسه الذي يتعطش اليوم إلى الحكمة " ⁽¹⁾.

و قد بدأ الضمير الأوربي يشعر بثقل ما ارتكبه في حق البشرية، يقول الكاتب المشهور جورج دو هاميل : " إن الأوربيين لا يدركون أنهم يدركون، أن الجنس الذي ينتسبون إليه قد ارتكب منذ قرون كثيرا من الخطايا والأخطاء، بل كثيرا من الجرائم، وأنه في طريقه لا إلى أن يفقد سلطانه فحسب .. بل أن يفقد التوازن والأمن الضروري كما يمارس عبقريته " ⁽²⁾.

ز/إنكار الدورة الحضارية : كانت من أهم التنبؤات التي بشر بها مالك بن نبي، أن الغرب انتهت مرحلته الحضارية، وأن مشعل الحضارة سينتقل إلى الحضارة الإسلامية والآسيوية . و أنه قد وصل إلى الشيخوخة والهرم . فتلك سنة كونية يمر بها الإنسان سواء كان بشكل فردي أو جماعي . وقد عبر عن ذلك الفيلسوف الألماني نيتشه بقوله : " إنه من السنن الأزلية أن يعيد التاريخ نفسه، كما تعيد الشمس كرتها من نقطة الانقلاب " ⁽³⁾. يقول مالك بن نبي : " الحضارة الغربية حين ننظر إليها عن كثب ونتفحص أمرها، نرى أنها الآن بدأت في نزول السلم السهل " ⁽⁴⁾. ويقول : " و أنا أظن اليوم أن شعوب القارة الجنوبية ستعود إلى حضارتها. " ⁽⁵⁾.

و الغرب يتجاهل هذه السنة الكونية، ويرى بأن حضارته هي خاتمة الحضارات، وأن نهايتها لا تكون . يقول مالك بن نبي : " الثقافة الغربية في دراستها تاريخ الحضارات لا تقف عند مفهوم الدور الحضاري " ⁽⁶⁾.
ما هي حجج مالك بن نبي في ذهابه إلى أفول الغرب ؟.

(1) مالك بن نبي. فكرة الإفريقية الآسيوية. ص 257.

(2) مالك بن نبي. المرجع نفسه.. ص 256.

(3) شروط النهضة . ص 52.

(4) مجالس دمشق. ص 122.

(5) المرجع نفسه. ص 74.

(6) في مهب المعركة . ص 98.

مفكرنا يرى أن المجتمعات حينما تفقد مبررات وجودها، تحاول البحث عن تعويض . فالحضارات لا تموت إلا حين تفقد مبرراتها، فإن لم تأتيتها التعويض أي أفكار جديدة تنهار.⁽¹⁾

هذه المبررات لا نقصد بها نقصان البنيان العلمي ولكن إرادة الحياة . فالآن الركام العلمي ثقیل تنوء به الحضارة الأوربية، ولكنها ستموت وتدفن تحت الركام بسبب فقدان المبررات، يمثلها المثل الجزائري نأكل القوت ومنتظر الموت . فهو في حالة الخطر التي مر بها المجتمع الإسلامي قبله بقرون عديدة .

و الغرب اليوم يبدو أنه قد فشل في عملية التعويض سواء من الجانب الأدبي كمحاولة الوجودية مثلاً، أو من الجانب السياسي كمحاولة الرجوع لأصله الأوربي بحثاً عن منطلقات جديدة لأفكاره ولنشاطاته.⁽²⁾ فالتاريخ بدأ في كتابة صفحة جديدة من صفحاته، لا يكون فيها الغرب عنصراً موجهها فيه .

ك/العقدة من الآخر :أوربا الاستعمارية تكره الآخر وتخشاه، وتريد أن يكون العالم خاوياً منه أو كما يقول مالك بن نبي "عالم بلا شهود".⁽³⁾ هذا الكره والخشية تظهر في صور عديدة كمحاولة إظهار أن العنصر الأوربي هو خالق الحضارة وسيدها، وأن العلاقة بينها وبينه علاقة تلازمية، لادخل لبقية الأجناس المتوحشة في هذه المعادلة . وبالتالي فلا حضارة ما لم يكن هو بانيها وقائدها .

هذا الحقد الأعمى، يظهر جلياً في بعض المعتقدات المضحكة تاريخياً، كالاعتقاد بأن الحضارة نتاج عبقرية الجنس الأوربي، وبأنها اختفت بعد سقوط روما . وأن الإنسانية عاشت حالة ركود أو توقف حضاري أو قل بتعبير أدق فراغ حضاري رهيب . وهم يقصدون بهذه المقولة الحضارة الإسلامية على وجه التحديد . فهي في نظر فئة من المستشرقين والمؤرخين الغربيين، لم تساهم في ملأ الفراغ الذي أنتاب الإنسانية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية . وما قدمه

(1) مالك بن نبي . مجالس دمشق . 171 .

(2) مالك بن نبي . مجالس دمشق . ص 171 .

(3) في مهب المعركة . ص 28

هو استنساخ لبعض الحضارات السابقة .⁽¹⁾ كما يظهر أيضا، في محاولة منع قيام حضارة توازي الحضارة الغربية،و كأن القدر لا يسمح بقيام حضارتين، يقول الوزير بيدو: "إنني لن أترك الهلال ينتصر على الصليب".⁽²⁾

إن هذه العقدة،ناتجة عن التعالي أولا وعن شعور بعقدة النقص ثانيا،وعلى أوروبا أن تتخلص منهما، لأن بقاءهما في النفسية الأوروبية، خطر على حضارتهم .و لتتخلص من مرضها عليها أن تؤمن بقداسة الإنسان أولا .

ل/الديمقراطية : كتب مالك بن نبي مقالا ممتعا عن الديمقراطية في الإسلام، بين فيه أن الديمقراطية نتيجة من نتائج حركتي الإصلاح والنهضة .⁽³⁾ وبأنها توافق جوهر الإسلام، في اعتبار أنه ينظر إلى الإنسان بنظرة تقديسية .⁽⁴⁾ والإسلام كان سباقا في وضع الحواجز التي تمنع الإنسان من الوقوع في هاوية العبودية أو هاوية الاستعباد.⁽⁵⁾

و كان شعار الثورة الفرنسية يقول : " لا نريد ربا ولا سيذا "⁽⁶⁾،أي لا تريد عبودية ولا استعباد للإنسان .

فهذه هي الديمقراطية التي رفعت الإنسان الأوروبي إلى مكانته الطبيعية،فبعد أن كان يعتبر مجرد تابعا إلى الملك أو مولاه، أصبح يسمى مواطنا . وتحاكم الثورة الفرنسية الملك لويس السادس عشر فتسميه المواطن كأبيه ،و يعد أن كان الفلاح الروسي يسمى موجيك في العهد القيصري، أصبح الرفيق بعد ثورة أكتوبر 1917م.⁽⁷⁾ فحقق بهذا التحرر، تقدما مذهلا .

إذن فالبنيان الحضاري مربوط بحرية الإنسان وتحقق كرامته على أرض الواقع، فصوت الشعب هو صوت الله.

(1) أنظر: مالك بن نبي .مجالس دمشق . ص 73.

(2) مالك بن نبي .في مهب المعركة.ص56

(3) مالك بن نبي .القضايا الكبرى .137.

(4) أنظر: مالك بن نبي .المرجع نفسه.ص137.

(5) أنظر: مالك بن نبي .المرجع نفسه.ص146.

(6) مالك بن نبي .المرجع نفسه.ص136.

(7) مالك بن نبي .المصدر السابق . 139 .

الخاتمة:

إن التقدم إلى الأمام محكوم بمدى النقد الذاتي الذي يوجهه أي مجتمع إلى نفسه، وإن المجتمعات الغربية في أمس الحاجة إلى مراجعة نفسها، واكتشاف ما يطلق عليه الشيوعيون بالنزعة الإنحرافية.⁽¹⁾

أما إن لم تتواضع، وبقيت في تكبرها، وتناست السنن الكونية التي تتحكم في الحضارات، ولم تلتفت إليها، فإن سيف التاريخ الذي قطع حضارات عظيمة كانت من قبل، سيقطع بكل تأكيد الحضارة الغربية من الوجود، ولن تنفعها عبقريتها وقوتها في شيء. فأخطاء هذه الحضارة أخطاء جسيمة، ظهرت جلية في أفكارها وأعمالها، وأصلتها في النهاية إلى أنها فقدت معنى الإنسان في شعورها، وهذا أكبر ما أبتليت به الحضارة الغربية.

⁽¹⁾ مالك بن نبي. في مهبط المعركة ص 142.